المقطع الرابع عشر

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَى: يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أَسَامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَتْلَ مَنْ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَقَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»(١)؟، وَكَذَلِكَ قَوْلُه: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ...**»(٢)، وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا.

وَمُرَادُ هَؤُلاءِ الْجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لاَ يَكْفُرُ، وَلاَ يُقْتَلُ، وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ!.

فَيُقَالُ لِهَؤُلاءِ الْجَهَلَةِ الْمُشْرِكِينَ: مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ الْيَهُودَ، وَسَبَاهُمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَيُصَلُّونَ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ.

وَهَؤُلاءِ الْجَهَلَةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ، وَلَوْ قَالَ: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ كَفَرَ وَقُتِلَ، وَلَوْ قَالَهَا.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فَكَيْفَ لا تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ شَيْئًا مِن الْفُرُوعِ، وَتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَوْحِيدَ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ دِينِ الرُّسُلِ، وَرَأْسُهُ؟!

وَلكِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ مَا فَهِمُوا مَعْنَى الأَحَادِيثِ:

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الإِسْلامَ، بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَاهُ إِلَّا خَوْفًا عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ. وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الإِسْلامَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ حَتَى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي ذَلِكَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ**﴾ [النساء: ٩٤]، أَيْ: تَثَبَّتُوا. فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُ، وَالتَّثَبُّتُ، فَإِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ الإِسْلامَ قُتِلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿**فَتَبَيَّنُواْ**﴾، وَلَوْ كَانَ لا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنًى.

وَكَذلِكَ الْحَدِيثُ الآخَرُ وَأَمْثَالُهُ، مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْتُ: أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلامَ وَالتَّوْحِيدَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الَّذِي قَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**»، وَقَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**»، هُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْخَوَارِجِ: «**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»(١)، «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(٢)،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦١١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠٦٦)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤) ومواضع أخرى، ومسلم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَع كَوْنِهِمْ مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وتَهْلِيلًا، حَتَّى إنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِن الصَّحَابَةِ. فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَلا كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ، وَلا ادِّعَاءُ الإِسْلاَمِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ.

وَكَذلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قِتَالِ الْيَهُودِ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَنِي حَنِيفَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَغْزُوَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] الآيَةَ، وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِمْ(١).

فَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ مَا ذَكَرْنَا».

الشرح:

تضمن هذا المقطع:

الشبهة العاشرة: الاستدلال بالنصوص التي تمنع قتال من قال: «لا إله إلا الله».

العرض:

يقولون جاءت نصوص صريحة صحيحة تمنع قتال من قال: «لا إله إلا الله»، ومن هذه النصوص:

---

(١) **حسن بشواهده**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٦٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٩٧٥)، وحسنه الألباني بشواهده في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٨٨).

أولا: عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ! قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؟!**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؟!**» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ(١).

ثانيا: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»(٢).

ثالثا: عن عِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»(٣).

قالوا: فهذه النصوص - وما في معناها - تدل على أن من قالها لا يكفُر ولا يُقتل، ولو فعل ما فعل.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٢٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٣).

النقض:

هذه الشبهة لها تعلُّق بالتي قبلها، وسبق تقرير أن المرء قد يكفر ولو كان يقول: (لا إله إلا الله)، ويفعل بقية شرائع الإسلام؛ إذا أتى ناقضا من نواقض الإسلام.

ويقال هنا:

١ - لا شك في منزلة كلمة التوحيد، وعظيم فضلها، وقد سبق بيان طرف من ذلك بأدلته في باب: «تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله»، من «شرح كتاب التوحيد».

٢ - لكن، هل كلُّ من نطق بها استحق فضلها، ولو عمل ما عمل؟ هذا بيت القصيد، ومربط الفرس.

فكلمة التوحيد لها ركنان: إثبات العبادة لله وحده، ونفيها عمن سواه.

فمن صرف العبادة - التي هي حق الله- لغير الله، فماذا بقي له من (لا إله إلا الله)؟.

لقد كان أهلُ الجاهلية أفقهَ من كثير من المتأخرين في فقه هذه الكلمة، لما سألوا النبي ﷺ عما يريده منهم، قال: كلمة، فقالوا: بل نعطيك عشرا، فقال: قولوا: (لا إله إلا الله)، فانتفضوا وقالوا: ﴿**أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا**﴾ [ص:٥]، لقد عرفوا معناها، وأدركوا لوازمها.

٣- فِعل الرسول ﷺ؛ حيث قاتل اليهود واستحل دماءهم ونساءهم، وهم يقولونها.

٤- فِعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في وقائع، منها: قتال بني حنيفة الذين ادعوا النبوة في مسيلمة، وتحريق علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للذين ألَّهُوه. فقد قاتلوهم، وهم يقولونها.

٥- يقال لهم: ما تقولون فيمن أنكر البعث؟

سيقولون: يكفر بذلك ويستحق القتل! فيقال: كيف، وهو يقول: (لا إله إلا الله)؟!.

فكيف لا تنفعه كلمة التوحيد هنا، وتنفعه إذا نقض التوحيد الذي هو الأصل؟!.

- **وأما حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:**

فالجواب عنه: أن من قال: لا إله إلا الله، له ثلاثة أحوال:

١- أن يُعلم التزامه بمقتضاها.

٢- أن يُعلم نقضه لمقتضاها.

٣- أن يجهل الأمر.

فالأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة، وعصمة قائلها محمولة على الحالين الأولى والثالثة، وحديث أسامة صريح في الثالثة؛ ولهذا فالأصل أن يُكَف عمن قالها، والواجب التحرز في ذلك، كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا**

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٣]، أي: إذا خرجتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله فكونوا على بيِّنة، ولا تنفوا الإيمان عمن بدا منه شيء من علامات الإسلام ولم يقاتلكم؛ لاحتمال أن يكون مؤمنًا يخفي إيمانه.

فأما إذا ظهر منه ما ينقض كلمة التوحيد، لم تنفعه هذه الكلمة، ويدل على هذا أدلة سبق بعضها، ومما لم يذكر:

١ - أن النبي ﷺ أمر بقتال الخوارج، فقال: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١)، وقال: «**لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(٢).

وهم قوم أصحاب عبادة واجتهاد في الصلاة وقراءة القرآن، وأخذوا العلم عن الصحابة، ومع ذلك فقد أمر بقتلهم.

وهم أيضا لا يخرجون من الملَّة، فكيف بمن نقض أصل الدين وأشرك مع الله غيره في عبادته؟!.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٢- قصة بني المصطلق (وهي قبيلة من خُزاعة) الذين أسلموا، فبعث إليهم النبيُّ ﷺ الوليدَ بن عقبة بن أبي معيط؛ ليأتي بصدقات أموالهم. فلما سمعوا به تلقَّوْه فرحًا به، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي الله ﷺ وأخبره بما ظنه، فجهَّزَ النبي ﷺ بعثا لقتالهم، فقدِم وفدٌ منهم إلى النبي ﷺ لما تأخر المُصَدِّق عليهم، فأخبروه بكذب الوليد، فأنزل الله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ**﴾ [الحجرات: ٦][1].

الشاهد أن النبي ﷺ عزم على قتالهم وهم مسلمون، يقولون: (لا إله إلا الله)، لما بلغه أنهم منعوا الزكاة، وأرادوا قتل الرسول.

فأيهما أعظم: من منع زكاة ماله، أم من أشرك بالله غيره؟!.

●●●

(١) تقدم تخريجه.

المقطع الخامس عشر

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمْ شُبْهَة أُخْرَى، وَهِيَ: مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بِنُوحٍ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُون، حَتَى يَنْتَهُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شِرْكًا![1].

فَالْجَوَابُ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِ! فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا نُنْكِرُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ**﴾ [القصص: ١٥]، وَكَمَا يَسْتَغِيثُ إِنْسَانٌ بِأَصْحَابِهِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ فِي أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْمَخْلُوقُ. وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا عِنْدَ قُبُورِ الأَوْلِيَاءِ، أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ، فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ - تَعَالَى -.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ؛ فَالاسْتِغَاثَة بِالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ أَنْ يُحَاسِبَ النَاسَ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ، وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: أَنْ تَأْتِيَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، يُجَالِسُكَ، وَيَسْمَعُ كَلاَمَكَ، تَقُولُ لَهُ: «ادْعُ لِي»، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ فِي حَيَاتِهِ.

---

(١) **ينظر**: صحيح البخاري (٤٧١٢) وأطرافه، وصحيح مسلم (١٩٤).

وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ: فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِك عِنْدَ قَبْرِهِ! بَلْ أَنكَرَ السَّلَفُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، فكَيْفَ دُعَاؤُهُ بِنَفْسِهِ؟

الشرح:

تضمن هذا المقطع:

الشبهة الحادية عشرة: استغاثة الناس بالأنبياء في موقف القيامة دليل على جواز الاستغاثة بالمخلوق، وأنها ليست بشرك.

العرض:

يقولون: ثبت في حديث الشفاعة الطويل أن الناس يصيبهم الكرب والشدة في موقف القيامة، فيفزعون إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيسألونه أن يشفع لهم إلى ربِّهم ليُخلِّصَهم مما هم فيه من كربة وشدة، ثم إلى نوح، ثم بقية أولي العزم، وهذا يدل على جواز الاستغاثة بالمخلوق، وأنه ليس بشرك.

النقض:

الاستغاثة هي: طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة. فهي بمعنى الاستعانة، لكنها استعانة خاصة بحال الشدة.

والاستغاثة نوع من الدعاء خاص برفع الشدائد والكرب، والدعاء يعُمُّ الدعاء بالخير والشر، ويكون من المكروب وغيره، فعلى هذا: كل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

إذا تبين معناها؛ فحكمها كما يأتي:

أولا: استغاثة مشروعة:

وهي الاستغاثة بالله - تعالى -، والتي تتضمن كمال اللجوء والذل والافتقار إليه. قال تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩].

ثانيا: الاستغاثة الممنوعة:

ومن صورها الاستغاثة بالأموات، أو بالأحياء الغائبين.

ثالثا: الاستغاثة الجائزة:

وهي الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر القادر.

إذا تبين هذا؛ علمتَ أنَّ الدليل في جهة، والمُستَدَلَّ عليه في جهة أخرى.

فالناس في ذلك الموقف الرهيب يبحثون عمن يخلِّصُهم مما هم فيه من كربة وشدة، فيتوجهون إلى أفضل خلق الله، وهم رسله، ويسألونهم أن يدعوا الله، ويسألوه أن يفصل بين الناس؛ ليرتاحوا من هول الموقف.

فهم سألوا الأنبياء أن يشفعوا لهم عند الله - تعالى - بالدعاء. وهذا سؤال لمخلوق حي حاضر قادر، ولا إشكال في ذلك.

وإنَّما محل البحث في: الاستغاثة بالأموات، أو بالغائبين، أو بالحاضرين في أمر لا يقدرون عليه، هذا موضع الخصومة، وهو ما ننكره، فأين في هذا الحديث الدلالة على جوازه؟!.

●●●

المقطع السادس عشر

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى، وَهِي: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلا[1]. قَالُوا: فَلَوْ كَانَتِ الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرَائِيلَ شِرْكًا، لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الشُّبهَةِ الأُولَى؛ فَإِنَّ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، فَلَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَهَا مِن الأَرْضِ وَالْجِبَالِ، وَيُلْقِيَهَا فِي الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لَفَعَلَ. وَلَوْ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَانٍ بَعِيْدٍ لَفَعَلَ. وَلَوْ أَمَرَهُ أَن يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ لَفَعَلَ. وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَن يُقْرِضَهُ أَوْ يَهَبَهُ شَيْئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ، فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُحتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ لا مِنَّةَ فِيهِ لأَحَدٍ.

فَأَيْنَ هَذَا مِنْ اسْتِغَاثَةِ الْعِبَادَةِ وَالشِّرْكِ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟!

الشرح:

(١) هذه القصة أخرجها الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٠٩)، وضعفها الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٧٤).

تضمن هذا المقطع:

الشبهة الثانية عشرة: الاستدلال بقصة جبريل مع الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، على جواز الاستغاثة بالمخلوق.

العرض:

يقولون: إن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أُلقِي في النار ووقع في الكربة والشدة، اعترض له جبريل في الهواء، فقال له: «ألك حاجة؟» فقال إبراهيم: «أما إليك فلا»(١).

قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركا لم يعرضها على إبراهيم، وجبريل رسولٌ ملَكِي من أفضل ملائكة الرحمن الذين عصمهم الله - تعالى - من معصيته.

النقض:

أولا: أن القصة لا تثبت، ولم تنقل بسند مقبول، ولا يستدل في أمور العقائد والأحكام إلا بما عُلِم ثبوته، وهذا الوجه كاف. ولكن مع ذلك نزيد وجها ثانيا.

ثانيا: لو سلمنا بصحة القصة؛ فليس فيها ما يدل على مطلوبهم.

وجه ذلك، كما سبق في الشبهة التي قبلها: أن الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر القادر جائزة، وجبريل حيٌّ حاضرٌ عَرَض أمرا يقدر عليه، كيف وقد

(١) تقدم تخريجه.

وصفه ربُّه بأنه شديد القوى، والنَّبي ﷺ رآه وله ست مئة جناح، قد سدَّ الأفق[1]، خَلْق عظيم لا يقدُر قدرَه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فواعجبا ممن يستدل بهذا على جواز الاستغاثة بالأموات والغائبين في تفريج الكربات، وتكفير الخطيئات!.

وإبراهيم الخليل شيخ الموحدين ﷺ، تعلَّق بحبال التوحيد وفوَّض أمره لله - تعالى -، وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[2].

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٦٣).

المقطع السابع عشر

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلْنَخْتِمْ الْكِتَابَ بِذِكْرِ آيَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ تُفْهَمُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَلكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الْكَلاَمَ لِعِظَمِ شَأْنِهَا، وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا، فَنَقُولُ: لاَ خِلاَفَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ. فَإِنْ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا؛ فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ، كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ، وَأَمْثَالِهِمَا. وَهَذَا يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَاسِ، يَقُولُونَ: (هَذَا حَقٌ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنَهُ الْحَقُ، وَلكِنْ لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلاَ يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ. وَلَمْ يَعْرِفْ الْمِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إِلاَّ لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا، وَهُوَ لا يَفْهَمُه، وَلاَ يَعْتَقِدهُ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْخَالِصِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ طَوِيلَةٌ تَبِينُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ: تَرَى مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ؛ لِخَوْفِ نَقْصِ دنياهُ، أَوْ جَاهِهِ، أَوْ مُلْكِهِ. وَتَرَى مَنْ يَعْمَل بِهِ ظَاهِرًا لاَ بَاطِنًا، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ إِذَا هُوَ لاَ يَعْرِفُه.

وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى -:

أُولاَهُمَا: مَا تَقَدَّمَ، وَهِي قَوْلُهُ: ﴿**لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٦]. فَإِذَا تَحقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ غَزَوا الرُّومَ مَع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَتكَلَّمُ بِالْكُفْرِ، ويَعْمَلُ بِهِ خَوْفًا مِنْ نَقْصِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ، أَعْظَمُ مِمَّنْ يَتكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ يَمْزَحُ بِهَا.

وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا**﴾ [النحل: ١٠٦] الآيَةَ، فَلَمْ يَعْذُرُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلاَءِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذا فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِه؛ سَوَاءً فَعَلَهُ خَوْفًا، أَوْ طَمَعًا، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ، أَوْ مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ، أَوْ أَهْلِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِن الأَغْرَاضِ إلاَّ الْمُكْرَهَ.

فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾، فَلَمْ يَسْتَثْنِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يُكْرَهُ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ وَالْكَلاَمِ والفِعْلِ، لَا عَقِيدَةِ الْقَلْبِ، فَلاَ يُكْرَهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾، فَصَرَّحَ أَنَّ الْعَذَاب لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الاعْتِقَادِ والْجَهْلِ والْبُغْضِ لِلدِّيْنِ، أَوْ مَحَبَّةِ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا، فآثَرَهُ عَلَى الدِّينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

هذه خاتمة الكتاب، وقد تضمنت ما يأتي:

أولا: أن التوحيد يتعلق بالقلب واللسان والعمل، فلا يكون المرء موحدا إلا إذا عقد هذه الثلاثة على توحيد ربه.

فمن أخل بتحقيق التوحيد بلسانه وجوارحه؛ لم يكن موحدا، ولو كان قلبُه يعتقد التوحيد الصحيح، وهذا حال إبليس وفرعون وغيرهما من أهل الكفر، قال تعالى - عن فرعون وقومه -: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤]، ومن حقَّق التوحيد بظاهر جوارحه لكنه لم يعقد عليه قلبَه لم ينفعه ذلك، كحال المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار.

وهذا كما قال أهل السنة في الإيمان، إنه قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

ثانيا: إذا حقَّقت التوحيد بالقلب واللسان والعمل، فاحرص على أن تحافظ على هذه الجوهرة الثمينة، فإنها تذهب بأيسر الأمور في نظر الناس، وعلى الموحِّد أن يتفطن لنواقض التوحيد، والقوادح في كماله، والنظر فيما يُنقِصه ويخدشه، ويجتهد في البعد عن ذلك، فهذا من نفيس العلم ومهمه.

وتذكَّر أن بعض الصحابة الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله، ومع رسول الله، كفروا بسبب كلمة عابرة خرجت على وجه المَزْح واللعب.

وكان ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أُثني عليه في وجهه يقول: «والله، إنِّي إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا»[1].

فهذا يورث العبد الحذرَ والتيقظ والتحرز من كل مؤثر على صفاء التوحيد وخلوصه[2]، وسبق بيان ذلك بأدلته وأقسامه وأمثلته في باب: «من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول»، من «شرح كتاب التوحيد».

بعض الناس يحافظ على ثوبه الجديد، ولو وقع عليه نقطة حبر لتكدر، لكن ربما يتكدَّر دينه ويتسخ إيمانه وتوحيده، وهو لا يحرك لذلك ساكنًا!.

---

(١) «المستدرك على فتاوى ابن تيمية»، جمع ابن قاسم، ص ١٢٢.

(٢) قال ابن القيم في «الفوائد» ص١٩٤: «التوحيد أصلَفُ شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه؛ فأدنى شيء يخدِشُه ويدنِّسه ويؤثر فيه».

ثم ذكر الشيخ أنه لا يُعذَر من ذلك إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧]، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله: خوفا، أو مشحة بوطنه، أو أهله، أو عشيرته، أو ماله، أو فعله على وجه المَزْح، أو لغير ذلك من الأغراض، إلا المكره.

والآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، فلم يستثن الله - تعالى - إلا المكره، والاستثناء معيار العموم، كما يُقال.

ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يُكره عليها أحد.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ فصرَّح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

● ● ●